القصة الخامسة.

سارقة القلب.

تضع نظاراتها السوداء على عينيها.. تأخذ حقيبتها من الدرج تضعها على كتفها وتتجه إلى باب المنزل قبل أن تخرج تنادي أمها لآخر مرة وتقول: "إني خارجة يا أمي هل تريدين شيئا من الخارج".

تجيب الأم وفي يديها بقايا العجين: "لا يا حبيبتي انتبهي لنفسك فقط".

ابتسمت لميس وأغلقت الباب خلفها وخرجت.. نزلت درجتين على مهل وبدأت بحذر المشي في الشارع، مكان عملها ليس ببعيد تمر من أمام محل بقالة الخالة سميحة تتوقف لثوان.. تلقي التحية عليها ثم تكمل طريقها، وقبل أن تصل إلى مكان وجهتها يوميا تتوقف لتشتري من العم يعقوب طعامًا للطيور لأنها قبل أن تصل تطعم الطيور في الساحة القريبة من مكان عملها فتجلس على مصطبة خشبية، وتبدأ بنثر الحبوب لتتجمع الطيور والحمام بأشكالها وتلتهم تلك الوجبة التي تقدمها لهم لميس يوميا.

كانت سعادتها في سماع أصوات تلك الطيور حولها أو ضحكات الأطفال حين يمرون مع آبائهم بالقرب منها.. تحزن كثيرا إذا سمعت طفلًا يبكي من بينهم.

الكل في حيهم يعرفونها ويودون قربها والتحدث معها؛ فهي طيبة القلب جدًّا شفافة الروح ذات ابتسامة حنونة.

واليوم أيضا تكرر نفس الخطوات فتجلس على المصطبة.. تضع حقيبتها بالقرب منها وتفتح كيس الحبوب لتبدأ بإطعامهم لم تمر ثواني حتى أحست بأن أحدًا ينتشل شيئا من جانبها.. تضع يدها مكان ما وضعت الحقيبة، ولم تجدها تمسك بعصاها لتنهض، ولكن أين ستلحق به وكيف ستلحق به وهي ضريرة لا ترى؟

يلتفت السارق برأسه ليرى إذا كان هناك من يتبعه بعد سرقته لحقيبة الفتاة، لكنه يتوقف فجأة؛ لقد سرق للتو أجمل فتاة عمياء يراها في حياته.

تندم فورا؛ ما كان يعرف أنها عمياء.. ما كان يبين عليها قط.. التفت يمينا ويسارا ليتأكد أن ما من أحد يراه أو رآه حين انتشل الحقيبة منها. تقدم نحوها بخطوات ندم وشفقة وحين أحست بوجود شخص ما بقربها قالت بخوف كبير: "أرجوك ساعدني، سرق أحدهم حقيبتي.. ليس فيها الكثير من المال، لكن هناك ما هو أغلى".

كانت تفاصيل وجهه تؤكد حزنه أكثر.. أمسك بيدها وقال: "لقد أتيت حاملًا حقيبتك". أمسكت بالسارق وأعدتها لك

أخذتها من يده تتفحصها، عادت لتقول بغضب: "هل أمسكت به؟ يجب أن نتصل بالشرطة حتى نلقنه الدرس لا يكررها مع شخص آخر".

قال السارق وعلامات الخجل على وجهه: "لقد هرب أعتذر حقا بالنيابة عنه".

أجابت: "لما تعتذر أنت بالعكس يجب أن أشكرك، لكني غاضبة، ماذا لو كان في الحقيقة دواء.. ماذا لو كان هناك آخر قطعة للنقود لأحد يشتري طعامًا لأولاده الجياع مثلًا، أو ليدفع بها قسط مدرسة أو بيت؟".

أجاب مطأطأ الرأس وقال: "صحيح، معك حق، والآن هل تسمحين لي بأن أساعدك لأخذك إلى أي مكان تريدين".

هدأت لميس قليلا وقالت: "لا أدري، لست بعيدة أصلا، لكن لم أعد أطمئن بالذهاب وحدي.. حسن تعال ولأضيفك قهوة.. ما رأيك؟".

ابتسم الشاب وقال: "قهوة، بالطبع؛ هذا جيد".

ثم توقفت لحظة استدارت إليه كأنها تراه لكنها بالحقيقة تسمع أنفاسه بالقرب منها وقالت: "لم تقل لي اسمك".

أجاب وهو سارح بعيونها السماويتين وقال: "اسمي شريف".

"سررت بالتعرف إليك يا شريف".. أجابت مبتسمة: "وأنا لميس".

وضعت الجميلة ذات العيون الجامدة الحقيبة على كتفها، فتحت عصاتها وتلمست الأرض، يمشي بجانبها شريف لتأخذه معها إلى محل عملها، ويذهب معها ليحميها من أي سارق قد يعترض طريقها. ولكن في قرارة نفسه كان يحميها منه أو كان يحاول أن يكفر عن ذنب لا يعلم هل سيغفر له أم لا.

وصلا إلى المكان الذي يقال عنه محل عملها.. كان هناك صبي يقارب السادسة عشرة من عمره ويبدو أنه الشخص الوحيد الذي يعمل معها يرتدي جينزًا أزرق ببلوزة سوداء فوقه.. نظر إلي بتوجس كأنه الحارس الشخصي للميس.. وقف أمامنا.. أخذ من يدها الحقيبة.. قال: "معلمتي.. لميس لقد

تأخرت.. ومن هذا؟".

ابتسمت لميس وقالت: "أولا ليس من الأدب أن نتحدث هكذا أمام الضيوف أيًّا كان زبائن أو مارة عاديين. وثانيا كاد شخص ما يسرق حقيبتي والأستاذ شريف هنا أعادها لي".

أومأ الصبي برأسه خجلا، ثم قال شريف: "هل تعملين هنا؟".

أجابت: "نعم.. هل أعجبك المكان؟".

أدرت رأسي يمينا يسارا.. كان المكان عبارة عن محل لصنع الفخار بكل أشكاله؛ تماثيل وأوعية أواني الزينة كالمزهريات وبعض التحف المصنوعة باليد.

كانت الرفوف مملوءة بتلك الأعمال التي يبدو أنها أخذت ساعات طويلة حتى اكتملت.. قلت معقبًا: "هل صنعت كل هذا بنفسك؟ هذا رائع".

أجابت لميس: "نعم.. لكن لم أفعله وحدي.. كان جميلًا يساعدني في كل شيء.. أليس كذلك يا جميل؟".

تقربت لميس منه واحتضنته.. كان الصبي مغرورًا بعض الشيء جميلًا.. وشكله جميل أيضا أجابها وقال: "لأنك معلمة جيدة.. والآن يجب أن آخذ طلبية السيد نهاد وأعود سريعا".

قالت لميس وهي تحاول ربط مئزرها حول خصرها: "حسنًا.. هيا استعجل وخذ حذرك.. لا تقود بسرعة.. هل فهمت؟".

أجابها كما كانت تريد أن تسمع وخرج.. تركنا نحن الاثنين وحدنا.. عدت.. التفت حولي.. كيف لفتاة فاقدة للبصر أن تصنع كل هذا الجمال بأيديها.

قلت: "يبدو أنني أكملت مهمتي وأوصلتك.. سأتركك لعملك يجب أن أرحل".

نظرت باتجاهي لكن عينيها لم تصوبا نحوي.. بدا على وجهها ذلك الهدوء والنقاء الذي لم أبصره قط ما حييت.

كم رأيت وجوها جميلة، لكنني لم أجد وجها عذبًا كوجه لميس، حتى عيناها المطفأتان تنيران بنور رباني مخالف للطبيعة غير معروف.

قالت لي بصوتها المهذب الناعم الرقيق: "أشكرك جدًّا يا شريف، لم أكن أعلم ما الذي كنت سأفعله لو لم تكن موجودا في ذلك المكان".

اعتصر الألم قلبي. لكنني لم أكن شجاعا كافيا لأعترف لها.. كيف سأعترف لها وأنا للتو قابلت كائنًا ملائكيا حييتها وخرجت، عدت إلى المكان الذي أدعوه بيتي أتقاسمه مع صديقين لي ولدنا وتربينا في الشوارع لا أذكر إلا أننا التقينا في نفس المكان والزمان ومنذ ذلك الوقت لم نفترق. عدت إلى المنزل ذلك اليوم مبكرا جدًّا لا يوجد في جيبي ولا قطعة نقود تذكر.

نهض ليرى إذا كان هناك طعام يؤكل في المطبخ.. لم يجد سوى بقايا من طعام البارحة. لم يشتهِ.. عاد إلى مكانه واتكأ وهو يفكر بما حل به صباحا.

أغمض عينيه وما إن أغمضهما حتى تراءى وجه لميس أمامه بعينيها التائهتين ذات النظرة الغريبة.. أحس بأنه يختنق لم يستطع البقاء في المنزل. يجب أن يشتت تفكيره بأمر ما.

خرج باحثا عن ضحية أخرى من أجل أن يسترزق بها كما كان يفكر وكما كان يعيش.. وكلما تقرب من أحدهم وكاد يسرقه تردد آخر لحظة هو يستذكر

كلمات لميس والموقف الذي حصل بينهما.

ساعات وهو يتجول دون أن يتحصل على قرش واحد عاد، كما خرج مرة أخرى لكنه وجد بانتظاره أحمد ومصطفى، استقبلاه كعادتهما، لكنه لم يكن في مزاج للمزح قط لمسته تلك الفتاة العمياء بلمسة غريبة كأنها فتحت عينيه على أمور كان يجهلها أو يتجاهلها من أجل البقاء على قيد الحياة.

كان الصديقان يتطلعان في بعضهما، ثم ينقلان نظراتهما إليه فيعبسان ولا يدريان ما أمره، لكن مصطفى أخذ سندويشه كان قد وضع فيها بعض الجبن. وكان أحمد قد أعد الشاي، صب له كوبا وقسما له المقسوم فقال مصطفى مقاطعا شرود شريف: "أخي. ماذا بك؟ لا تبدو على ما يرام".

أجابه شريف: "لا شيء، فقط لم أعد بأي مال اليوم لم تسمح لي الظروف اليوم".

ربت مصطفى على كتفه وقال: "لا يهم.. فأنا وضعت يدي على محفظة كانت مليئة، سأذهب لأشتري كل شيء.. أملأ الثلاجة.. سيكفينا الطعام لأسبوع كامل.

لم يجبه شريف.. اومأ برأسه.. أخذ منه كوب الشاي وشربه لعل الشاي يهدئ الإعصار الذي ضرب رأسه.. كان يتحرك ذهابا إيابا في الغرفة الصغيرة التي هي مكان جلوسهم ونومهم.. أوقفه أحمد متسائلا وقال: "هل لك أن تخبرني ماذا بك.. لماذا أنت متوتر وشارد ما الذي تفكر به؟".

تطلع إليه شريف كأخ كبير له يحبهم وبحنو عليهم وقال: "لا أدري، لكن هناك أمرًا يتآكل في صدري، يحفر في داخلي ويضيق عليَّ تنفسي".

أجابه أحمد وقال: "هل آخذك للمستوصف.. هل يراك طبيب؟".

أجابه شريف وقال: "الأمر الذي حل بي.. لن يشفيه دواء ولن يشخصه طبيب.. الأمر الذي حل بي لن يستطيع أحد فهمه".

ترك صديقه وعاد ليخرج إلى الشارع كأن أنفاسه أطبقت عليه وهو في المنزل، وبدأ يمشي دون وجهة، حتى أخذته قدماه أمام محل لميس.

يقف هناك يطالعها من بعيد يخطو إلى الأمام خطوة؛ فيعيده عقله مرة أخرى إلى الخلف لم يتجرأ قط أن يذهب ويكلمها. بقي هناك ينتظر حتى حل المساء وقبل أن تغرب الشمس كانت لميس قد أغلقت محلها عائدة إلى المنزل وهو يتبعها من بعيد.

لا يدري لما يتبعها فقط هناك شيء في داخله لا يدعه يبتعد عنها ولا يجعله يتقرب منها. كأنه يقف بعقده في الوسط يجرانه اثنان وهو يتمزق بينهما.

*****

يومان وثلاثة وهو على هذا الحال؛ يخرج صباحا ينتظرها فيتبعها حتى تصل لا يبارح مكانه أبدا حتى المساء ويكرر ما فعله في اليوم السابق، وقبل أن تصل إلى الشارع الذي تلتفت إليه لتدخل حارتها. تقف فجأة في منتصف الطريق وتستدير مباغتة إياه.. ترفع عصاها أمامه وتقول: "لمَ تلحقني يا شريف؟".

صدم هو بل دهش؛ كيف عرفته هذا السؤال الأهم؟ قال لها: "ومن أين عرفت أنني أنا هو".

قالت ضاحكة: "من جميل.. طبعا من سيكون غيره رآك.. تحوم حولي وحول المحل.. ما الذي تريده يا شريف".

تقدم منها خطوتين وقال: "أريد أن أعرفك أكثر".

رفعت حاجبيها ولوت شفتها، أجابته: "ولماذا؟".

قال: لا أدري.. أنت لا تخرجين من رأسي كل هذه الأيام، ولم تكن لي الشجاعة أن أتقرب منك. أما بعد أن كشفت أمري هل تقبلين دعوتي لك؟".

استدارت وعادت لتكمل سيرها عائدة إلى المنزل وهو يتبعها ويكرر عليها نفس السؤال حتى وصلت إلى منزلها، صعدت أول درج والتفتت إليه قائلة: "حسنًا.. بشرط؛ أنا أختار المكان".

وافق سعيدا بما قالته وأكملت: "قابلني هنا غدا كما تفعل، وسنقضي اليوم كله في المحل، أعلمك كيف تصنع مزهرية".

صفق بيده وكأنه ربح جولة صعبة كانت مستعصية عليه أو هذا ما كان يشعر به، ووعدها أنه سيكون هناك بالوقت المحدد.

فتحت الباب. ودخلت، أما هو فكاد يرقص في وسط الشارع فرحا.. عاد إلى المنزل، كان صديقاه بانتظاره. وهما عازمين على التحدث معه لكي يعرفا ماذا يخبئ عنهما وما هو الذي قلب أحواله هكذا؛ فهو دائم السرحان. يخرج صباحا ولا يعود إلا في المساء ولم يدخل قرشا إلى البيت.

اعتقدوا أول الأمر أنه مريض، ويخفي عنهم، لكنهم بعد التفكير استبعدوا هذا الأمر، ثم توقع مصطفى أن أمرًا أهم بكثير من المرض ألم به حتى يتغير هكذا.

جلس شريف في الصالة وتجمع حوله صديقه؛ واحد عن يساره والآخر عن يمينه، وسألاه: "ألن تخبرنا ماذا بك يا أخي، أحوالك لا تعجبنا".

رد شريف بابتسامة بلهاء وقال: "أعتقد أني وقعت بالحب".

ما إن انتهى شريف من جملته حتى دخل الصديقين في نوبة ضحك هستيرية. وكان يضحك شريف معهم أيضا، حتى هدأوا بعد دقائق، فقال مصطفى: "كيف يعني وقعت بالحب؟ هل الحب الذي نعرفه؟ يعني فتاة وما شابه ذلك؟".

هز شريف رأسه بنعم وقال: "إنها ملاك وليس فتاة، بل حورية سقطت من الجنة".

علق أحمد عليه بسخرية وقال: "وهل سيكافئنا الله بحورية؟ نحن الذاهبين إلى جهنم بمعاصينا.. يقول حورية هل سمعت؟".

اختفت الابتسامة من وجه شريف حين ضربه أحمد بالحقائق على وجهه، الحقيقة التي إذا كانت تدل فهي تدل على أنه سارق ينشل من الناس النقود ليشبع جوعه، ويدفع ثمن الحائط والسقف الذي يأويه هو وإخوته الصغار "أصدقاءه".

انتبه مصطفى على ما قاله أحمد وعلي.. تغير وجه شريف وحاول أن يغير الموضوع لكن لم يعرف كيف، فقال شريف: "معك حق يا أحمد.. يبدو أني نسيت من أنا وكيف أعيش.. لكن هل يعني هذا أن ليس لنا الحق في أن نحِب ونُحَب. هل ولدنا وحيدين لنموت وحيدين أيضا؟".

حزن أحمد كثيرا على ما قاله شريف وشعر مصطفى بالمر الذي في فمه وقال: "معك حق يا أخي. ألا نستحق نحن الحب أيضا مثل غيرنا، لكن لو سألتك ما الذي تعمله ماذا ستجيب؟".

قال شريف: "لا أدري، ربما أعمال حرة".

أجاب أحمد وقال: "صحيح.. أعمال حره، فكرة جيدة".

قال مصطفى: "كان الأحكم بينهما".

"ثم ماذا لو أحبتك أيضا؟ وطلبتك بعلاقة حقيقية ما الذي سنفعله وكيف ستتصرف. هذا الأمر لن يجدي نفعا بالكذب".

"أنا لا أكذب، أنا أحاول أن أتقرب منها وبعدها سأفكر بأمر ما". قال شريف بجدية. ليقاطعه أحمد ويقول:

"يعني هل ستبحث عن عمل حقيقي".

قال شريف: "ألم نجرب من قبل ولم يوظفنا أحد ما الذي سنعمله؟".

قال مصطفى: "أي شيء.. لنجرب مرة أخرى.. وأنت يا أحمد، هل أنت معنا؟".

فرك أحمد رأسه لم يكن مقتنعا بما يقولانه صديقاه لكنه كان يجب أن يوافق لأنهم لم يفترقوا يوما ودائما كان رأيهم واحدا.

قال شريف: "إذن، بعد غد سنبحث عن عمل، لأن في الغد لدي موعد مع سارقة القلب".

قال أحمد مازحا: "وهل سارقة القلب لها اسم أم ماذا".

أجاب شريف بتنهد: "اسمها لميس.. لميس".

أجابه الاثنان وقالا: "آه".

وضربهم بالوسائد التي بجانبه لأنهما تشاغبا عليه بمزحتهم.

أتى الصباح واستعد شريف للقاء لميس كما تواعدا. كان واقفا ينتظرها حتى خرجت من دارها وهي ترد الباب خلفها.

كانت ترتدي فستانا أصفر بلون الليمون. ويتوسط خصرها حزام جلدي أبيض. تلبس حذاءً رياضيًّا.. في حالتها هذه لا ينفع إلا حذاء رياضي لراحتها".

تضع نظاراتها السوداء الجميلة من يراها يعرف أنها عمياء.. تقرب منها وقال: "صباح الخير".

"شريف! لقد أتيت. صباح النور".

"طبعا سآتي هل أفوت موعدا معك".

"اوهوو.. المهم هل ستكمل اليوم بطوله أم لا؟ هذا الأهم".

"هل تعتقدين أنني لن أستطيع التحمل ليوم واحد؟ أنت لا تعرفينني أبدا".

"بالفعل". قالت لميس، أنا لا أعرفك وأريد التعرف إليك حقًّا!".

أجاب شريف بحماسة: "أستطيع أن أخبرك كل شيء".

"حسنًا، لدينا اليوم بطوله لنتحدث، لكن يجب أن نمر على بعض الأماكن قبل الذهاب للمحل".

"حسنًا.. أنا بجانبك".

"افسح لها المجال". عبرت بجانبه بابتسامة لطيفة على وجهها.

كان يطبق كل شيء تقوله وهما يسيران، حتى إنه قام بفعل نفس الأشياء التي فعلها حتى وصلا إلى نفس المقعد الذي بدأت منه الحكاية. كان ينظر متأملا وكانه بدأ عهدا جديدا من حياته بعدما التقاها. ثم أخذها إلى المحل وكان جميل بانتظارهما.. حياه هذه المرة بأدب أكثر ودخل معها. قالت لميس: "جميل، أعط أخاك شريف مريولًا من الداخل.

"بالحال". أجاب جميل.

قالت لميس: "انزع أي شيء ثمين عليك، وارتدِ المريول.. الأمور ستصبح مكركبة وملطخة بعد قليل".

أخذ شريف المريول من يد جميل وربطه على خصره وقال: "لا أرتدي أي شيء ثمين. والآن، كيف سنبدأ؟".

"تعالي معي".

مدت يدها تتحسس حتى مد هو يده لها لتمسكها. وما إن مسكت يده حتى شعر برجة كهربائية تسري في داخله. تسحبه خلفها وهو يطيعها بلا كلمة.. جلسا على مقعد صغير يعلو على الأرض بارتفاع قليل جدًّا.. أمامهم الطاولة الدائرية التي تشكل عليها قطع الفخار، وبجانبها دلو ماء تستخدمه لتلين قطع الطين به.

أمسكت بقطعة ووضعتها على القرص المتحرك. ثم قالت: "أعطني يدك".

مد يده.. كانت قد وضعت يدها على يديه وكأنها تدرب طفلا صغيرا على الكتابة. أما هو فكان لا ينظر أمامه وماذا كانت لميس تفعل.. إنما عيناه لم تتحرك من على وجهها.

كانت تشرح الطريقة التي يجب أن يتبعها في عمل القطعة ومتى يتوقف وكم كمية الماء التي يضع. كيف ينحتها بإبهامه وأصابعه، كيف يكبرها ويصغرها، لكن كل الكلام الذي قالته لم يسمع منه شيئا سوى أنه كان مركزا على شفاهها التي تتحرك وعيونها التي تبحلق في فراغ لا متناهٍ.

ولأنه لم يكن منتبها ليديه، حدث ما كان متوقعًا.. اندلق عليهم الطين الصناعي وتنافرت بعض القطع المبللة بالماء على وجههم وملابسهم.. كانت لميس

غاضبة بعض الشيء لما أوقفت القرص الدوار وقالت: "انظر ما الذي فعلته.. أنا عمياء وأعمل افضل منك".

لم يجبها، لكنه بدأ يقهقه بلا توقف وهي بادلته الضحكة أيضا.. كان ضحكهما يصل حتى الشارع.. لم تضحك لميس في حياتها هكذا قط.

توقفا يأخذان نفسا ثم قال: "تبدين رائعة.. أتدرين؟".

سكتت لميس وقالت: "فيك شيء غريب.. هل تسمح؟".

مدت يداها.. كانت تريد أن تتلمس وجهه لتحفظ تفاصيله وتقسيماته بيديها الملوثتين بالطين.. لم يمانع، بل قرب وجهه لها، كان ذائبا بين يديها مغمض العين مطلق العنان لروحه فقط. أنفاسه تعلو وتهبط بهدوء لم يشعر به من قبل وراحة كبيرة وهو بقربها، كأنه طفل ويشعر بالاطمئنان جانبها.

قالت لميس بعد أن توقفت عن لمسه: "لديك ملامح صلبة ووجه شبه متكامل".

ابتسم شريف.. قاطعهم جميل وهو يقول: "لقد جلبت طلبية أخرى ليتفاجأ بالأشياء مبعثرة". وأكمل قائلاك "ما الذي حدث هنا؟ هل مر إعصار ما؟".

لم يجب أي أحد منهما لكن بدأت نوبة ضحك أخرى.. وجميل ينظر مدهوشا.

*****

توالت الأيام.. كان لا يمر مساء إلا وشريف يوصل لميس إلى بيتها كل يوم حالما تغلق المحل.. يتحدثان كثيرا عن حياتهما وعرفت عنه كل شيء إلا ما كان يعمل في الماضي.. وهو تعرف حياتها من خلال الحكايات التي روتها له.كان في بعض الأحيان يساعد جميل في تحميل الطلبيات، عثر على عمل هو ومصطفى في الميناء بعد صعوبة وتوسلات، لم يجدوا أي عمل آخر لأنهم من دون أي أوراق ثبوتية ولا يحملون سوى ورقة ثبت عليهم اسمهم، فقط كانت مؤقتة وعليهم أن يجدودها كل سنة. ليس معهم سوى شهادة الابتدائية التي حصلوا عليها بمدارس محو الأمية، حاولوا من قبل أن يعثروا على عمل لكن بمؤهلاتهم هذه مستحيل.. فما كان إلا أن يختاروا وقتها الطريق الأسهل وهي السرقة.

والآن وبعد أن توسلوا رب العمل كثيرا قبل بهم بشكل مخفي ووعدوه أن لا يسببوا أي مشاكل، ولم يكن لديهم أي حقوق كالآخرين سوى النقود التي يأخذونها مقابل عملهم الذي يبذلون جهدا كبيرا فيه. أما أحمد فقط ماطل بأمر العمل وكان يخبرهم بأنه يبحث ولا يجد.

وبعد استلام أول راتب له كانت السعادة لا توصف. عزم صديقيه إلى المطعم، واشترى هدية ل لميس.. اشترى له بعض الملابس الجديدة ولمصطفى وأحمد أيضا.

مر شهرين عن أول لقاء كان يوم السبت عطلة أسبوعية وكان شريف قد وعد لميس بأخذها لمكان لقضاء بعض الوقت وقد حضرها كمفاجأة لها.

وقف أمام باب بيتها.. لأول مرة سيرى أمها ويأخذها من عتبة منزلها.. طرق الباب يقف هناك متوترا تعرق جبينه ويداه مثلجتان. فتحت الأم الباب..

نظرت إليه.. لم يفسر نظراتها وقالت: "أنت شريف، إذن حدثتني ابنتي عنك كثيرا".

ابتسم وقال: "سررت بمعرفتك سيدتي.. وليس حدثتني عنك".

قالت الأم: "تفضل ادخل، هل ستقف بالشارع".

أومأ برأسه قبولا. وفسحت له الأم الطريق ودخل. لم يتجرأ بالتعمق أكثر لكنه وقف بالقرب من الباب. وكان أمامه درج يصعد إلى الطابق العلو على ما يبدو.. قالت الأم: "يبدو أنك ولد لطيف يا شريف. ابنتي لم تحظَ بهكذا أصدقاء مميزين من قبل، وخاصة مثلك وهي تتحدث عنك طوال الوقت، أنت لست كبقية أصدقائها".

أجاب شريف وقال: "بصراحة، ابنتك هي المميزة.. لقد تغيرت كثيرا بسببها، ولها الفضل أن أرى الحياة بعيونها".

تنهدت الأم بحسرة وقالت: "عيونها.. يا بني تبدو طيبا. لكن أرجوك لا تجرح قلبها؛ فقلب ابنتي شفاف جدًّا".

هز برأسه موافقا. ولم يجب لأن الكلمات صمتت في حنجرته بعد أن رأى لميس وهي تنزل من الدرج بفستانها الوردي الطويل. كانت رائعة الجمال كزهرة تتفتح للتو.. لأول مرة يرى شعرها منسدلا دون رباط، عيونها ورموشها متكحلة شفتاها تلمع بلون وردي خفيف. تمسك مسند الدرج بيدها. قالت: "هل شريف أتى يا أمي".

ردت والدتها وقالت: "نعم، إنه هنا".

وهو سارح بها لا يرفع عينيه منها قالت: "أهلا يا شريف.. إن انتهيت هل نذهب الآن أم تشرب قهوة؟".

أجاب: "لا، لا داعي لنذهب أفضل"..

"أأمل أن لاتتأخرا".

قالت لميس: "لا، لن نتأخر. لا تقلقي يا أمي، هيا بنا يا شريف".

أمسكها من يدها وخرجا معًا، ثم تأبطت ذراعه وكان يشعر بالفخر لأنها بجانبه. وصلا إلى مكان إيقاف سيارات الأجرة، استقلا واحدة وأخذها إلى المكان الذي وعدها به كمفاجأة.. وصلا إلى المكان. أمسك بيدها حتى لا تتعثر رجلها وبدأ يقودها بجانبه.. كانت تستمع إلى الأصوات حولها؛ أصوات كثيرة وموسيقا مختلفة حتى الباعة صوتهم مختلف.

قالت وهي تقرب رأسها منه: "أين نحن؟ وما كل هذه الأصوات؟".

أجاب شريف: "نحن في مدينة الملاهي.. لقد قلت إنك لم تأتِ إلى الملاهي قط.. وأردت أن أخذك إليها.. ما رأيك؟".

ابتسمت لميس، احتضنته فكان هذا جوابها.. كأن بحضنها احتضن العالم كله. قالت: "أنا حقا سعيدة، وأشكرك جدًّا. هذه أجمل مفاجأة تقدم لي".

قال: "هناك شيء آخر".

قالت: "ماذا هناك بعد".

"استديري" قال.

"لماذا" قالت..

"افعلي فقط ما أطلبه منك".

"حسنًا".

استدارت.. أخرج السلسلة من جيبه وألبسها إياها.. تلمستها؛ فكانت عبارة عن قلب وسطه قلب آخر.

قالت: "شكرا لك.. لمَ كلفت نفسك؟".

"هذا أقل شيء أفعله لك.. لقد غيرت حياتي".

خجلت من كلامه وأرادت أن تتهرب من الحديث وقالت: "بمَ سنبدأ جولتنا".

أجاب: "سنجربهم كلهم.. ونبدأ بالأحصنة الدوارة".

أخذها من يدها. وتجولا في كل الأماكن حتى إنه لعب لعبة إطلاق النار وربح لها لعبة أيضا.. كان دبًّا أبيضَ كبيرًا، ثم انتقلا إلى دولاب الهواء وبينما بدأ بالصعود قال شريف: "أنا أحبك يا لميس".

ابتسمت.. أمسكت وجهه القريب منها وقالت: "وأنا أحبك يا شريف.. ولم أحب أحدًا غيرك ومثلك؛ جعلتني أعيش ما لم أعشه بكلِّ حياتي".

أمسك يديها وقبلهما وقال: "بل أنت من علمتني كيف أعيش حقًّا. قبلك كنت ضائعا وبعدك سرت بالطريق الصحيح". لم تفهم ما قاله لكنها اطمأنت بقربه.. وضعت رأسها على صدره وأكملا الجولة كلها.

كانت ليلية لا تنسى.. واعتراف بالحب لا مثيل له، رغم بساطته لكن القلوب أصبحت واحدة في تلك الثانية.

أعادها إلى المنزل كما وعد أمها. لم تتأخر.. استمتعت كثيرا، وقبل أن تتركه عند الباب، وضعت قبلة على خده تحسس مكان القبلة واقفا دون حركة كأنه

تجمد.. هذه الفتاة تأخذ عقله وتجمد الدم في عروقه.

انتبه بعد مضي دقائق أنه ما زال واقفا عند الباب وهي دخلت وأغلق خلفها.. مثل الأبله بابتسامة أكثر بلاهة لكنها مليئة بالحب.

عاد لمنزله.. التفت حوله صاحبيه ليحكي لهما ما فعل. ولكن كل ما قاله هو: "يجب أن أتزوجها".

كان سعيدا لدرجة أن أصدقاءه سعدوا بقراره، لكن بالرغم من سعادتهما لفرحه كان أحمد متوجسًا من أمر ما.. أحمد هو يعتبر الأخ الصغير. ذو ١٨ عاما كان متعلقا جدًّا ب شريف، يعتبره أخًا وأبًا، ليس فقط صديق احتم بين ذراعيه كمصطفى.

مرت الأيام وذهب شريف وإخوته أصحابه بزيارة رسمية لأم لميس. لم يتحدثوا بأي أمور سوى فقط ليتعرفوا إلى بعض، ليعطي الفرصة لأمها أن تعرفه أكثر.

وكان قد وعد لميس بأنه سيتقدم لها، ما إن يستقر أكثر. ويؤجر منزلا نظيفا ويؤثثه. ثم يجد حلًا لأصدقائه ويسكنهم بالقرب منه. يعرف أن كل هذه الأمور قد تحتاج إلى وقت، بل وقت طويل، وإجابته بأنها مستعدة أن تنتظر العمر كله.

كان يشعر بأن الحياة فتحت الباب أمامه، وخاصة بعد أن استطاع أن يقنع أحمد بالعمل لدى لميس تحت يدي جميل ليدربه.

ازدادت ساعات عمله أكثر. لأنه كان يحتاج للمال أكثر من ذي قبل، وإذا بأحد المساءات بينما كان يرفع بعض الصناديق ليحملها في حاويات مخصصة لها لتنقل على الباهرات حدث تصادم غير مقصود بين آليات التحميل. وإذا به يقع

من على الآلة التي يعمل عليها ولأنها عاليه بعض الشيء.. كان سقوطه كارثيًا.

صدى صرخته أسمع كل من في الميناء، التموا حوله ثم طلبوا سيارة الإسعاف أخذت إياه للمشفى.

كان مصطفى بجانبه طوال الليل حتى حل الصباح ليخبره الطبيب بأنه بخير حاليا لكنه يحتاج إلى عملية مستعجلة وإلا سيبقى مقعدا طوال حياته.

كان وقع الخبر كالصاعقة عليهح لم يتمالك نفسه وأجهش بالبكاء. حتى قدميه ما عادت تستطيع حمله.. كان حزينا لدرجة أن الدنيا عاندتهم بشكل كبير ولم تكمل سعادتهم قط.

تركه وعاد محملا بهموم تقصف ظهر الجمال كانهيار جبل بزلزال غير الأحوال.. عاد مصطفى لينقل الخبر لأحمد الذي لم يستطع تصديق ما حدث. وكل ما كان يفكر به أن السبب هي لميس وحبه لها. لو لم تدخل في حياتهم لما حدث كل هذا. حملها ذنب لأذب لها فيه حمل حبهما المسؤولية على خسارة صديقه ربما.

خرج يركض من البيت ودموع تنهمر كشلال متوجها إلى محل لميس الذي يعمل به منذ مدة.. ولما وجدها تجلس أمام الطاولة المستديرة. قال وهو يمسح دموعه: "كل شيء حدث بسببك".

رفعت رأسها عاقدة حاجبيها تتساءل: "أحمد.. هذا أنت؟ ماذا بك؟ ما الذي يحدث؟".

"كله بسببك..قد يخسر أخي حياته أو قدميه بسببك، لولا دخولك في حياتنا هكذا لما حدث أي شيء".

ما زالت لميس لم تفهم عن ماذا يتحدث نهضت من مكانها وقالت: "رويدا رويدا.. أفهمني ما الذي تحاول قوله".

"أخي شريف عُرِّض لحادث ليله البارحة في الميناء.كما تعلمين يعمل لوقت أكثر حتى يوفر لك ما وعد به...".

قاطعته وقالت: "توقف لحظة.. حدث لشريف حادث كيف؟ أين هو الآن؟".

ضحك أحمد بطريقة هستيرية وقال: "لماذا؟ هل ستذهبين لتكملي عليه؟ يا ليته حين سرقك ما التفت خلفه ورآك، ما كان حدث كل هذا".

رجعت لميس للخلف خطوة كادت تتعثر بالأدوات خلفها. لتفهم ما قاله للتو.. لتهضم الاتهامات التي يوجهها لها أحمد.. وقالت: "اسمع يا أحمد.. خذني لشريف حالا أو أخبرني بأي مشفى أذهب إليه، ثم سنتحدث بعدها بكل ما تقوله.

ندم أحمد للحظات لأنه أفشى لها بالسر، بسر لقائها الأول مع شريف، لكنه لم يكن يفكر بتعقل. أخبرها لأنه كان يريد أن يحمل أحدهم ما حدث لشريف.

أخذها إليه للمشفيح فكانت متوجعا جدًّا.. أخبرها الطبيب بأنه تحت المخدر نائم ويحتاج لعملية سريعة.. قالت لميس: "أخضعه للعملية فورا ولا تفكر بالنقود.. كل شيء سيجري كما يجب".

وفعلا أخضع شريف للعملية.. وجلست لميس في هذا الوقت مع أحمد ومصطفى. وشرحوا كل شيء.. لم يتبقَ أي شيء مخفي.

بعد أن خرج الطبيب غرفة العمليات.. بشرهم بالنتيجة الإيجابية. فقط

يحتاج إلى عدة شهور للتمرين الفيزيائي وسيعود مثل قبل وأفضل.

مرت الأيام.. وكانت لميس تزور شريف كل يوم لتطمئن عليه، ولم تخبره أنها عرفت كل شيء.. لكنه طلب منها أن تخبره كيف استطاعوا تدبير مبلغ النقود.

فكانت الإجابة من مصطفى: "الآنسه لميس. وضعت كل مدخراتها، وساعدنا أبناء الحي أيضا، وجمعنا مبلغا كبيرا.. ما تبقى نستطيع أن ندفعه على أقساط حالما نعود للعمل".

دمعة عينا شريف. كان يؤنبه ضميره باعتقاده أن لميس لا تعرف آخر سر.. كادت تنهض لتعود للمنزل.. أمسكها من يدها وقال: "هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه.. يوم لقائنا الأول كنت...".

قاطعته لميس وقالت: "لم يحدث شيء. لا تفكر بالأمر بعد".

فهم أنها عرفت.. كانت أنظاره تتجول بين أحمد ومصطفى ولميس حين قالت: "يا شريف، أنا عمياء البصر لا البصيرة وأثق بقلبي لا بعيني، لا يهمني ماضيك أبدا، بل ما أنت عليه معي".

أمسكها من يدها وقبلها قال من خلف دموعه التي تتلألأ في عينيه: "ماذا فعلت يا ألله لأستحق واحدة مثلك؟".

أجابت: "كان يريد توبتك وأنا كنت الوسيلة.. ما أسعدني بهذا".

"احبك جدًّا يا لميس".

"وأنا أحبك أكثر".